العلامة السيد ابو عدنان : المرأة الإنسانية في مدرسة الإسلام السيدة زينب (ع) نموذجاً

تكریم المرأة في الإسلام: قال ابن الأثير، وهو قطب من أقطاب مدرسة التاريخ: وكانت زينب امرأةً عاقلةً لبيبةً جلةً ([2]). اسمها زينب، وهي زينة النساء، وهو اسم علم مؤنث، والزينب: نوع من الشجر، حسن المنظر، طيب الرائحة، وبه سميت المرأة إذا كانت على حظ من الحسن والجمال. المرأة شريكة الرجل في قضية التكریم من قبل الله سبحانه وتعالى، وليس من حق الرجل أن يبتزها هذا الحق، أو يصادرها هذه المكرمة من قبل الله سبحانه وتعالى، فكما كرم الله الرجل، كرم المرأة كذلك في بنائها المادي، وكذلك فيما أودع فيها من ملكات معنوية. والأمم تختلف في قراءتها للمرأة بحسب ما تمتلك من رصيد ثقافي وحضاري، فالمرأة في الشرق لها حظها، وفي الغرب لها حظها، منذ قديم الأزمنة، فهي تتقدم أو تتأخر بقدر ما يمارس الرجل من السلطة والإلغاء تارة، أو التعزيز والتكریم تارةً أخرى. وقد يكون الرجل هو الرافع للمرأة أن تتبوأ موقعها في الخارطة العامة من بناء الكون، وقد يكون على العكس من ذلك، ساحقاً لكرامتها، منتهباً جميع الحقوق التي ثبتتها الشريعة لها. قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ، وَحَمَلْنَا ذَنَابَهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ ([3]). فهم كمكوّن مشترك لهم الأفضلية على الكثير من مخلوقات الله سبحانه وتعالى في عوالم السماوات والأرض، ولم يكن التكریم للرجل حصراً، إنما كان للرجل والمرأة على حدٍ سواء. لذلك نستغرب أن نجد البعض اليوم يحاول أن يتجاوز الحدود، ويسقط ما في ذهنه من قراءة سلبية، على المشهد الإسلامي في ثوابته الأصيلة، فالآية القرآنية قطعياً الصدور، صريحة الدلالة لمن كان يمتلك الرؤية القرآنية متجرداً عن جميع الحسابات، أما من كان بخلاف ذلك فهو وما هو عليه، ولسنا عليهم بمسيطرين. يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ ([4])، ويقول: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ([5]). قد يتصور البعض، ويُصور، أن الغرب هو أول من يحارب الكراهية التي باتت تنتشر وتضرب في جميع المفاصل، وما حصل في نيوزلندا شاهد على ذلك، إلا أن الأمر على العكس من ذلك تماماً، فالإسلام هو أول من نبذ الكراهية حتى في اختيار الدين والمعتقد، ومدّ البساط، وترك المساحة كافية لمن يريد أن يعتنق أو لا يعتنق. هذا هو الإسلام في مبدئه الأول، وعلى أساس ذلك حصلت المنطلقات في جميع الاتجاهات. إن التوأمية بين الرجل والمرأة هي أساس البناء الإنساني، فلا نتصور أن هذا الكون يعيش الاستقرار والسمو

والارتقاء، ما لم نجمع بين هذين العنصرين: الرجل والمرأة. بل أكثر من ذلك، أن العرب في أدبهم يقولون: ما من رجل عظيم إلا وراءه امرأة. أي أن مظاهر العظمة التي يكتسبها الرجل أسندت إلى وقوف المرأة خلفه. ولا غرابة في ذلك، فالمرأة هي الأم، والزوجة، والبنات، وهذا المثلث من البناء، إذا عاشه الإنسان سليماً فلا يشك أنه يُنتج العظماء، أما إذا حصل الخلل في واحد من هذه الجوانب، ولم يقم واحد من الأضلاع الثلاثة بسدّ النقص الحاصل من غياب أحد الأضلاع، فهذا يعني - فيما يعنيه - أن لا ننتظر عظيماً، ودونك التاريخ، حتى في مساره النبوي، ولا يعني ذلك أن لا خصوصية خاصة بهم من الله تعالى، فإثبات الشيء لا ينفي ما عداه، وهذه رسالتي لمن يتصيد ما بين الحروف والسطور. فالتوأمية بين الرجل والمرأة إذن هي أساس البناء الإنساني، وقد حارب الإسلام فكرة التقليل من شأن المرأة. قال تعالى في وصف الفرد الجاهلي قبل الإسلام: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [6]. أما ما بعد الإسلام، فكانت المرأة معززة مكرمة، حتى لدى أشدّ الناس صلافةً، إلا ما خرج بالدليل، والتجاوزات التاريخية واضحة معدودة، ولكن لا ينبغي أن نصبغ بها جميع جنات المشهد في القديم والحاضر وما يأتي مستقبلاً. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنزِّلِي جَاءِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنزِّلِي أَعْلَامٌ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [7]. فالمسألة ليست مجرد عبادة، إنما العبادة عبارة عن جسر ينقل الإنسان إلى الهدف المقصود، والنهاية المطلوبة. فبقدر ما تتزود من العبادة بقدر ما تحمل معك وقوداً للوصول إلى الهدف. قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [8]. ومن أبرز دعائم التقوى التي تدفع عجلتها هي العبادة. فحقيقة الشراكة بين الرجل والمرأة يعكسها القرآن الكريم بشكل صريح، والخلافة على الأرض للرجل والمرأة، لا كما يستوحيه البعض من خلال بعض الروايات الإسرائيلية أو الموضوعية، التي لا يخلو منها موروثنا الروائي الإسلامي لدى الطرفين، فالروايات الإسرائيلية أو المنحولة الموضوعية، أو المدسوسة، مبنوثة في الموروث الروائي لدى جميع المسلمين، وسوف أضع يدي في يوم ما على بعض المصادر، لأبين ما فيها من ذلك، بالأرقام والحسابات. ومن يرجع لتفسير الميزان، يجد الكثير من الإسرائيليات التي وضع العلامة، المفسر الكبير، محمد حسين الطبطبائي، يده عليها، ووقف على الكثير من مفترقات الطرق، وفتح الكثير من المسارات التي ينتهي من خلالها القارئ والمتتبع إلى آفاق وعوالم جديدة. وكذلك الشيخ محمد جواد مغنية رحمه الله، وأستاذنا الكبير، آية الله العظمى مكارم الشيرازي في تفسيره. فهؤلاء وضعوا النقاط على الحروف بعيداً عن الحساسيات. إذن، حقيقة الشراكة بين الرجل والمرأة في الخلافة على الأرض، من الأمور المسلمة التي لا نقاش فيها. فقوله

عَلَيْدِكُمْ رَقِيبًا [11]). فإِنَّ فِي النِّسَاءِ، وَأَنْتِ أَيْتَهَا الْمَرْأَةُ أَيْضًا: لا تكوني
حَدَّانَةً مِنْدَانَةً طَدَّانَةً، يَأْتِيكَ الزَّوْجُ مَتَعْبًا مَرَهَقًا فَتَسْتَقْبِلِيْنَهُ بِالطَّلِبَاتِ الَّتِي تَنْوَعُ بِهَا
العُصْبَةَ أَوْ لَوْ الْقُوَّةَ، وَلَيْسَ الرَّجُلُ الْوَاحِدُ، وَلَا تَكُنِ الْإِبْتِسَامَةَ آخِرَ مَا يَنْتَظِرُهُ الزَّوْجُ مِنْ
زَوْجَتِهِ، وَلَا تَنْتَظِرِي مِنَ الزَّوْجِ أَنْ يَبَادِرَ فِي طَلْبِ الْأَشْيَاءِ بَلْ عَلَيْكَ أَنْ تَقْرَئِي ذَلِكَ فِي عَيْنِيهِ،
فَمَوْجِعَ الزَّوْجَةِ فِي رِعَايَةِ بَيْتِ الزَّوْجِيَّةِ مَهْمٌ وَخَطِيرٌ جَدًّا. وَصِيَاغَةُ الْأُسْرَةِ وَتَرْتِيبُهَا يَبْدَأُ مِنْذُ
الْيَوْمِ الْأَوَّلِ، يَوْمَ كَانَتْ الْبِنْتُ فِي بَيْتِ الْأَبُوَيْنِ. فَالْعِلْمُ هَدْفٌ، وَسَلَاحٌ فِي الْوَقْتِ نَفْسُهُ، وَهُوَ مَطْلَبُ
الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَلَكِنْ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَذْهَبِ الْبِنْتُ إِلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَهِيَ لَا تَحْسُنُ صِنَاعَةَ قَدْحٍ مِنْ
الشَّيْءِ، نَاهِيكَ عَمَّا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ. فَلَقْمَةٌ وَاحِدَةٌ يَأْكُلُهَا الزَّوْجُ مِنْ إِعْدَادِ زَوْجَتِهِ، تَعْنِي لَهُ
الكثير من الحب، وماذا بعد الحب؟! قَالَ تَعَالَى: [وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً
وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَدُونَ] [12]). فَلِلْمَرْأَةِ دَوْرٌ كَبِيرٌ
فِي الْحَيَاةِ، حَتَّى فِي صِنَاعَةِ الْقَرَارِ السِّيَاسِيِّ وَالْاِقْتِصَادِيِّ وَالْاجْتِمَاعِيِّ، فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ يَعْطِيهَا
الْحَقَّ أَنْ تَكُونَ فِي مَجَالِسِ الْأَعْيَانِ، وَالشُّورَى، وَالنَّوَابِ، وَمَجَالِسِ الشُّيُخِ، وَأَمْثَالِهَا. وَالْإِسْلَامُ لَمْ
يَلْغُ دَوْرَهَا مِنْذُ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ، فَكَانَتْ تُسْتَشَارُ وَيؤْخَذُ رَأْيُهَا، وَمَنْ يَقْرَأُ سِيرَةَ النَّبِيِّ (ص) قِرَاءَةً
صَحِيحَةً يَجِدُ ذَلِكَ وَاضِحًا جَلِيًّا. وَبِظَنِّي أَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَنْتَقِدُونَ الْإِسْلَامَ وَيَحَاوِلُونَ النَّيْلَ مِنْهُ
وَانْتِقَاصَهُ فِي تَشْرِيْعَاتِهِ بِخُصُوصِ الْمَرْأَةِ، لَوْ قَرَأُوا الْإِسْلَامَ بِعَيْنَيْنِ مَفْتُوحَتَيْنِ وَقَلْبٍ مَشْرُقٍ نَوْرَانِي،
لَمَا اتَّهَمُوا الْإِسْلَامَ تِلْكَ التَّهْمَ الْبَاطِلَةَ الْجَائِرَةَ الْحَاقِدَةَ. يَقُولُ تَعَالَى: [وَالَّذِينَ
اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ] [13]). وَنَحْنُ الْيَوْمَ دَخَلْنَا فِي مَرِحَلَةِ الرِّزْقِ الْمَشْتَرِكِ
بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ، فَإِنْ أَحْتَاجَ الزَّوْجُ إِلَى زَوْجَتِهِ فَلْتَكُنْ هِيَ السِّنْدُ، وَالْعَكْسُ بِالْعَكْسِ. فَلَا دَاعِي
لِلذَّهَابِ إِلَى الْمَحَاكِمِ وَإِثَارَةِ الْخُصُومَاتِ فِي هَذَا الشَّأْنِ. وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ الزَّوْجَ تَجِبُ عَلَيْهِ
النَّفَقَةُ لِزَوْجَتِهِ، وَأَنْ يَكْرُمَهَا، وَإِكْرَامُهَا لَيْسَ فِي لَقْمَةِ الْعَيْشِ وَقِطْعَةِ الْقِمَاشِ فَقَطْ، بَلْ عَلَى
الْأَقْلِ أَنْ لَا تَكُونَ أَقْلٌ مِمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ فِي بَيْتِ أَهْلِهَا وَعَشِيرَتِهَا. أَمَّا الْأَكْلُ وَالشَّرْبُ وَالْمَلْبَسُ فَهُوَ
مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الْإِكْرَامِ، وَلَيْسَ هُوَ الْإِكْرَامُ كُلُّهُ. فَمَتَى مَا سَمَا الزَّوْجُ وَارْتَفَعَ بِمَسْتَوَاهَا وَشَأْنُهَا
الْمَادِي وَالْمَعْنَوِي ارْتَفَعَ هُوَ أَيْضًا وَسَمَا، وَالْعَكْسُ صَحِيحٌ. زَيْنَبُ (ع) مِثَالُ الْمَرْأَةِ الْقَدْوَةِ: مَنْ
هِنَا نَجِدُ أَنَّ زَيْنَبَ (ع) صَاحِبَةَ هَذِهِ الذِّكْرِ، لَهَا صِفَاتٌ عَظِيمَةٌ جَلِيلَةٌ سَامِيَةٌ رَاقِيَةٌ، وَهَذِهِ الصِّفَاتُ
لَمْ تَحْصَلْ عَلَيْهَا بَيْنَ لَيْلَةٍ وَضَحَاها، إِنَّمَا حَصَلَتْ عَلَيْهَا بِجَهْدٍ وَمَوَاطِبَةٍ وَتَرْوِيضٍ وَتَرْبِيَةٍ. فَالسَّيِّدَةُ
الْحَوْرَاءُ زَيْنَبُ (ع) لَهَا صِفَاتٌ عَدِيدَةٌ بَعْدَ الْمَعْصُومِيْنَ الْأَرْبَعَةِ عَشَرَ (ع)، فَهِيَ: الْحَوْرَاءُ،
وَالْعَقِيلَةُ، وَزَيْنَبُ الْكُبْرَى، وَالطَّاهِرَةُ، وَصَاحِبَةُ الدِّيْوَانِ، وَالغَرِيبَةُ، وَالْمَسْبِيَّةُ، وَأُمُّ الْمَصَائِبِ،
وَالْعَالِمَةُ، وَالْمَحْدَثَةُ، وَالْعَلِيمَةُ، وَالْمَحْدَثَةُ، وَالصَّابِرَةُ، وَالسَّيِّدَةُ. فَهَذِهِ أَرْبَعُ عَشْرَةَ صِفَةً،

كلها تبين سموها ورفعتها ومقامها الكبير، فهي العالمة غير المعلمة، والفهمه غير المفهمه، والمحدّثة والمحدّثة في الوقت نفسه، وكان الإمام علي (ع) يخصها بوقت يستقطعه من وقته، وهذا مظهر من مظاهر تكريم المرأة في الإسلام. فإنا أصحاب الأقالام الملتوية، والنوايا السيئة، يا من تسيئون لزینب والزهران وخديجة وأمّهات المؤمنین، وتسيئون للإسلام أولاً وبالذات: التفتوا وانتبهوا، فليستم أحرص على المرأة من الله تعالى، ولا من رسوله، مهما كنتم. فهذه المرأة العليمة، العالمة غير المعلمة، كان يروي عنها ابن عباس، وبعض الأقطاب من الصحابة، وكانت تجلس للتفسير في بيتها، وكانت تلقب بصاحبة الديوان، وكان يقصدها من أراد فهم بعض آيات القرآن الكريم. أما عبادتها فحدث عنها ولا حرج، يشهد لها ما كانت عليه في أشد الظروف، فقد عاشت محنة كربلاء فلم تترك صلاة الليل، تلك الصلاة المظلومة المضيعة عندنا، مع أنها تفتح أبواب الأرزاق، وتعبّد الطرق. يقول الإمام الحسين (ع) لزینب (ع) ليلة العاشر من المحرم: يا أختاه، لا تنسيني من نافلة الليل. أما نحن فقد لا نوفق لصلاة الفجر، فضلاً عن صلاة الليل. أما فصاحتها فحدث ولا حرج. يقول أحدهم ممن كان في مجلس ابن زياد: ورأيت زينب بنت علي (ع) ولم أر خفرة قط أنطق منها، كأنها تُفرغ عن لسان أمير المؤمنين ([14]). أما صبرها، فلا يحتاج إلى برهان ودليل، إلا أنه الصبر المحفوف بالتسليم بقضاء الله وقدره، لا كما يصوره بعضهم، من عدم القبول بالأمر الواقع. كما أنها قدمت مثلاً رائعاً في العناية بإمام زمانها الإمام زين العابدين (ع)، وتدخلت في إنقاذ حياته مرتين، إحداهما في كربلاء، عندما همّ شمر بقتله، فتدخلت ودفعت عنه الموت. والأخرى في الكوفة عندما همّ ابن زياد بضرب عنقه. فهل تنبئ هذه المواقف عن امرأة منكسرة أو امرأة شجاعة، تصارع الصعاب من حولها؟ هذه هي زينب الكبرى التي إذا أردنا قراءتها فلا بد أن نقرأها بشكل صحيح، فهي قدوة المرأة المسلمة المؤمنة، بعد أمها الزهراء (ع). وأما عن بركتها فلا زلنا نراها بأعيننا حتى هذا اليوم، إذ لم يُدفع البلاء عن أطرافها إلا ببركتها، فهي بحقّ كاسحة الإرهاب. نسأل الله سبحانه وتعالى لنا ولكم التوفيق، والحمد لله رب العالمين.